ص ص 315-329 P-ISSN : 2571-9807 / E-ISSN : 2710-8244

وظيفية أحمد المتوكل بين التراث والحداثة

Ahmed Al-Mutawakel Functional Between Heritage and Modernity

أ. حورية فيلالي (*) houriafi@hotmail.com

أ. محمد بن حمو moh@yahoo.com

جامعة طاهري محمد، بشار – الجزائر

تاريخ الارسال: 07-10-2020 تاريخ القبول:28-02-2020 تاريخ النشر: 31-12-2020

الملخص:

إن المتتبع لمسار اللسانيات الحديثة يدرك أن اللسانيات الوظيفية و التداوليات بصفة عامة قد استحوذت في الآونة الأخيرة على حيز كبير من الدرس اللساني بفضل آراء أصحابها الذين لم يتعاملوا مع اللغة بمعزل عن الواقع الذي استعملت فيه . إنّ هذا التعامل مع اللغة قاد إلى نتائج أفضل بكثير من تلك التي توصلت إليها مدارس لسانية أخرى نظرت إلى اللغة باعتبارها بنية بغض النظر عن وظيفتها التواصلية التي من أجلها وجدت اللغة أساسا . لقد وجهت المدرسة الوظيفية النقد لكثير من آراء البنيويين و التوليديين التحويليين كما استثمرت بعض آرائهم وطوّرتها لتصل في النهاية إلى نموذج جديد نراه أجدى و أنفع . و في اللسانيات العربية الحديث عن الوظيفية يعني بالضرورة الحديث عن أحمد المتوكل الذي قصر جهوده العلمية على هذا النموذج في دراسته للعربية . من هذا المنطلق نسعى في هذا المقال إلى الكشف عن محاولة المتوكل تطبيق نموذج سيمون ديك الوظيفي على اللغة العربية.

الكلمات المفتاح : لسانيات ، نظرية وظيفية ، أحمد المتوكل ، وظيفية عربية.

Abstract:

The follower of the path of modern linguistics realizes that functional and deliberation in general have recently acquired considerable space in the linquistic lesson thanks to the opinions of their owners,who did not deal with the language in isolation from the reality in which it was used .This approach to language has led to far better results than those of other language schools that viewed language as a structure regardless of its communicative function for which language was primarily found. Functionalism has criticized many structuralists and generativists opinions ,invested some of their views and developed them in order to eventually reach a new model that we see as more useful and efficient. And efficient and in the arabic linguistics talk about functional means necessarily talk about ahmad almotawakil ,who limited his scientific efforts on this model in his study of Arabic. From this point of view, we seek in this article to reveal the attempts of Al-Mutawakel to apply the model of Simon Dick's to the Arabic language.

Keywords: Linguistic , Functional theory , ahmad Almotawakil, Functional Arabic.

(*) المؤلف المرسل: حورية فيلالي houriafi@hotmail.com

المنارة للاستشارات

توطئة:

لا بد أولا قبل الحديث عن النظرية الوظيفية من الإشارة إلى أمر مهم يتعلق بالنظريات اللسانية عموما ، إذ يمكن للباحث أن يلحظ أنّ تعامل اللسانيات مع اللغة قد تمظهر في نوعين من النظريات : « نظريات وظيفية تؤمن بارتباط بنية اللسان الطبيعي بوظيفة التواصل و نظريات غير وظيفية تسلّم بإمكان وصف البنية بمعزل عن الوظيفة.»[1] و قد تحدّث أحمد المتوكل في كتاباته عن هذا التعاطي المختلف مع اللغة عند اللسانيين، والذي أفرز نظريات يؤمن بعضها بضرورة ربط اللغة بوظيفتها التواصلية في حين يتعامل معها الآخرون من حيث هي بنية بغض النظر عما تؤديه من وظائف.

إنّ ربط اللغة بوظيفتها التواصلية يعني أنّ الدرس اللغوي قد تجاوز « البنيوية و المواريث السوسيرية في مرحلة لسانية جديدة هيأت الأجواء لبروز اللسانيات التداولية و ما انبثق عنها أو تأثر بها من اتجاهات لسانية وظيفية. هذه المرحلة المعاصرة من عمر اللسانيات صنعت أسسها أبحاث فلاسفة المدرسة التحليلية.»[2]

وإذا كانت الوظيفة التداولية قد تجاوزت البنيوية الوصفية التي تقف عند حدود الشكل فإنّ حال التوليدية التحويلية لم يكن مختلفا لأنّ « التوليدية التحويلية أشهر النظريات الصورية التي لا تؤمن بجدوى أخذ الوظيفة بعين الاعتبار .»[3]

إنّ الحديث عن اللسانيات الوظيفية التداولية هو في الحقيقة حديث عن عدد من النظريات التي تهتم « بدراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام »[4]. و هي كلّها نظريات تنتمي إلى حقل اللسانيات التداولية « فالنظريات اللسانية الحديثة التي تنحو منحى وظيفيا هي "النسقية الوظيفية" و"الوجهة الوظيفية للجملة" و "التركيبيات الوظيفية" و "الفرضية الإنجازية" و "نظرية النحو الوظيفي.»[5]

فالوظيفية نظرية لسانية تعنى « بوصف بنية اللغات الطبيعية بربطها بما تؤديه هذه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية.»[6]

أولا:اللسانيات التداولية (الوظيفية):

نرغب في هذا المقام في الحديث عن النظرية الوظيفية و عن تطبيقاتها على اللغة العربية من خلال جهود أحمد المتوكل في كثير من مؤلفاته التي خصصها للحديث عن مبادئ هذه النظرية و أسسها محاولا تطبيقها على نحو اللغة العربية .

المنارة للاستشارات

1- مفهوم التداولية (الوظيفية):

لقد واجهتنا في هذا البحث كثير من الصعوبات التي نجمت عن تعدد المصطلحات للنظرية نفسها. فالنظرية هذه هي الوظيفية و التداولية و البراغماتية و الذرائعية و المقامية...[7]

كل هذه المصطلحات هي ترجمات لمصطلح واحد هو PRAGMATICS. إنّ هذا التعدد يربك الباحث و يتسبب في كثير من الأحيان في الحيلولة دون الفهم الجيد لمعطيات هذه النظرية.

لقد فضل قصي العتابي في ترجمته لكتاب جورج يول « ترجمة المصطلح PRAGMATICS إلى التداولية بدلا من البرجماتية، أو المقامية و ذلك لأن التداولية.. هي المكافئ الأنسب خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن PRAGMATICS هي بالأساس دراسة اللغة من منظور تداولها بين مستعمليها.»[8]

تهتم التداولية بالسياق و تحاول دراسة اللغة بربطها بالمقام فهي لا تهتم بالجوانب النحوية والصرفية و التركيبية بمعزل عن السياق. إذن « تختص التداولية بتقصي كيفية تفاعل البنى و المكونات اللغوية مع عوامل السياق لغرض تفسير اللفظ و مساعدة السامع على ردم الهوة التي تحصل أحيانا بين المعنى الحرفي للجملة و المعنى الذي قصده المتكلم.»[9]

إن ما يهم التداولية فعلا هو دراسة المعنى من خلال البنية، و هي في هذا تهتم بالمتكلم و السامع على حد سواء لأن اللغة يتداولها طرفان، لهذا « تختص التداولية PRAGMATICS بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم (أو الكاتب)، و يفسره المستمع (أو القارئ) لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة.»[10]

إنّ اللغة في نظر الوظيفيين تقوم « بوظائف متعددة لا بوظيفة واحدة ، و هذا ما نجده عند جاكبسون الذي حصر وظائف اللغة في ست وظائف، و هاليداي الذي لاحظ أن الأغراض التي يمكن أن تستعمل اللغة في تحقيقها غير متناهية.. لذلك يُجمع الوظيفيون على أن اللغة أداة للتواصل بين الكائنات البشرية، فهي ظاهرة تداولية بامتياز.»[11]

إن المتتبع لبدايات المنحى الوظيفي في الدراسات اللغوية الغربية يدرك أن مدرسة براغ التي ألحّت على دراسة وظائف اللغة قد آمنت بهذا التوجه شأنها في ذلك شأن مدرسة فيرث.[12]

إن الحديث عن مدرسة براغ وعن المدرسة النسقية مع فيرث يدخل في نطاق البحث عن جذور المدرسة الوظيفية، ذلك أن براغ و نسقية فيرث تصنفان ضمن المدرسة البنيوية الوصفية . ومع ذلك فكثير من البنيويين كانوا قد تفطنوا لأهمية السياق و أثره في بنية الجملة. فماثيسيوس عرض

المنارة للاستشارات

أفكارا تتعلق بالتفسير الوظيفي للمسند و المسند إليه في إطار المنظور الوظيفي للجملة ، كما أن أفكار تربتسكوي تصنف ضمن الإطار الوظيفي.[13]

إن أهم ما جاء به فيرث هو اهتمامه بالمعنى إلى جانب عنايته بالبنية و هو في ذلك يرى « أن المدارس اللغوية الأخرى اعتنت بالتركيب الداخلي للغة أكثر مما يجب، و أغفلت استعمالها الفعلي في المجتمع رغم علاقتها بالجانب الأول، و من ثم فإنّ استعمال اللغة محكوم بمبادئ أساسية هي: السياق، المقام أو المناسبة ، الموضوع. »[14]

و في العالم العربي حظيت أبحاث مدرسة براغ بعناية كبيرة « فلقد نشط الاهتمام بوظيفية براغ ترجمة وتعريفا بشكل خاص في تونس، غير أن كل تلك المحاولات لم تستطع أن تثمر اتجاها يحمل كل مقومات اتجاه وظيفي عربي.»[15]

إنّه من الخطأ الاعتقاد بأن براغ و فيرث تحسبان على المدرسة الوظيفية و إن كانتا قد سبقتا فعلا إلى الحديث عن الوظيفة التواصلية للغة « وعلى هذا الأساس فإن الوظيفية التي سنتحدث عنها هنا هي وظيفية اللساني الهولندي سيمون دك الذي شكل اتجاها قائم الذات في البحث اللساني العالمي كان للثقافة العربية حظها الأوفى منه بفضل جهود أحمد المتوكل.»[16]

و هذا ما أقره أحمد المتوكل في قوله: « يعتبر النحو الوظيفي الذي اقترحه سيمون دك في السنوات الأخيرة في نظرنا النظرية الوظيفية التداولية الأكثر استجابة لشروط التنظير من جهة و لمقتضيات النمذجة للظواهر اللغوية من جهة أخرى.»[17]

لقد استطاع أحمد المتوكل أن يتمثَّل النظرية الوظيفية أحسن تَمثُّل من خلال كتاباته التي حاول فيها تطبيق ما جاء به سيمون دك على اللغة العربية فنحن لانكاد « نجد لدى النحاة العرب المحدثين نموذجا في وصف العربية من وجهة تداولية غير نموذج الباحث المغربي أحمد المتوكل.»[18]

2- مبادئ و أسس نظرية النحو الوظيفي:

لقد حاول أحمد المتوكل تقديم مبادئ و أسس نظرية النحو الوظيفي للقارئ العربي ملخصة فيما يلي:[19]

1- وظيفة اللغات الطبيعية الأساس هي وظيفة التواصل.

2- موضوع الدرس اللساني هو وصف " القدرة التواصلية" (COMMUNICATIVE COMPETENCE) للمتكلم – المخاطب.

3- النحو الوظيفي نظرية للتركيب و الدلالة منظورا إليها من وجهة نظر تداولية .

المنارة للاستشارات

4- يجب أن يسعى الوصف اللغوي الطامح إلى الكفاية إلى تحقيق أنواع ثلاثة من الكفاية:

أ- الكفاية النفسية: PCYCHLOGICA L ADEQUACY

ب- الكفاية التداولية: PRAGMATICL ADEQUACY

ج- الكفاية النمطية: TYPOLOGICAL ADEQUACY

و في كتابه « المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي ، الأصول و الامتداد » يستحضر المتوكل تعريفات سيمون ديك لهذه الكفايات.

فالكفاية التداولية تتعلق باستكشاف النحو الوظيفي خصائص العبارات اللغوية و كيفية استعمالها، و علاقتها بالقواعد التي تحكم التواصل اللغوي. أمّا الكفاية النفسية فتنقسم إلى نماذج إنتاج تحدّد كيف يبني المتكلم العبارات اللغوية و ينطقها و نماذج فهم تحدّد كيفية تحليل المخاطب للعبارات اللغوية و تأويلها.

و فيما يخص الكفاية التنميطية فقد أقصت اللسانيات التنميطية مفهوم النحو الكلي و عوّضته بمفهوم النمط الذي اتخذ معيارا في تصنيف اللغات بإرجاعها إلى فصائل كبرى حسب خصائصها البنيوية.[20]

من خلال ما سبق تظهر أهمية السياق في تحديد البنية اللغوية للعبارات ، ومن ثمّ لا يمكن دراسة البنية بمعزل عن سياقها. كما أنّ النحو الوظيفي يهتم بدراسة القواعد المرتبطة بالاستعمال الفعلي للغة ، فهو ليس نحوا معياريا يدرس القواعد بمعزل عن تحققها في الواقع.

ثانيا: اللسانيات و التراث النحوي العربي :

إن المتأمل في واقع اللسانيات العربية يدرك وجود مواقف متباينة تجاه اللسانيات عموما يمكن إجمالها فيما يلي:[21]

1- استحسان التراث اللغوي و إلباسه زيّ الحداثة و نبض المعاصرة و التسليم بما جاء فيه جملة و تفصيلا مع ادعاء سبق لغويينا إلى كل جديد لساني (لسانيات التراث و بعض الكتابات اللسانية التمهيدية)

1- نقد هذا التراث إلى حدّ الاستهجان ، و الدعوة إلى الحداثة و التجديد (معظم الوصفيين وبعض التوليديين).

3- محاولة التوفيق بين القديم (التراث اللغوي) و الجديد (البحث اللساني) (اللسانيات الوظيفية).

المنارة للاستشارات

إنه من الواضح إذن أن المتوكل يصنف ضمن الاتجاه الثالث الذي يسعى إلى دراسة التراث اللغوي العربي في ضوء نظرية النحو الوظيفي دون إقصاء أو تهميش لأي منهما ، وإنما يسعى إلى استغلال التراث اللغوي العربي بشكل يسهم في تطور المنحى الوظيفي في دراسة اللغة.

يصرّح المتوكل في معظم كتاباته بتبني هذا الموقف في تعامله مع التراث اللغوي العربي سعيا منه إلى خلق نظرية وظيفية لنحو اللغة العربية إذ يقول في كتابه المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد : « اعتمادا لأطروحة التطور (في مقابل أطروحة القطيعة) و في ظلها اقترحنا (المتوكل 1982) قراءة للفكر اللغوي العربي القديم في مراحل ثلاث:

أولا : استخلصنا من مختلف "علوم اللغة العربية" أهم مقومات التنظير العربي القديم للدلالة.

ثانيا: جدّدنا معالم منهجية عامة لمقارنة النظرية الدلالية العربية القديمة بالنظريات اللسانية الحديثة خاصة منها النظريات الموجهة تداوليا.

ثالثا: حاولنا استكشاف إمكانات عقد حوار معرفي بين النظرية الدلالية العربية المستخلصة والنظريات التي قورنت بها.»[22]

لقد حاول أحمد المتوكل منذ البداية تجاوز الصراع بين القديم و الحديث إدراكا منه بأن ذلك كله لا جدوى منه وأنه في الحقيقة السبب الرئيس في تخلف اللسانيات العربية ، فهذا الصراع أهدر الوقت والجهد ، إذ أنّ حال اللسانيات العربية كان يمكن أن يكون أفضل لو لم ننزلق في هذا المسار، لقد كان هدف المتوكل الأول هو « درء التعارض بين لسانيات الأداة و لسانيات التراث.»[23]

انطلاقا من هذا التعامل المتميز مع التراث العربي استطاع المتوكل أن يغني النظرية الوظيفية بكثير من المعطيات و أن يقترح بعض التعديلات على ما جاء به سيمون ديك « لقد أصبحت أعمال المتوكل الوظيفية التداولية التي تنطلق من اللغة العربية مصدرا لا يستغنى عنه ضمن أدبيات الوظيفية العالمية.»[24]

إنّه بالإمكان أن نلحظ أن أعمال المتوكل جاءت بإضافات تُحسب له ، فهو على خلاف كثير من الباحثين قد تخلص من التبعية المطلقة للنموذج الغربي و انتقل إلى مرحلة ثانية استطاع فيها أن يدلي بدلوه و أن يضيف من الآراء و الأفكار ما جعله يسهم في تطور الوظيفية العالمية ، لقد قدّم « المتوكل مجموعة من الاقتراحات والمراجعات لما تضمنه نموذج سيمون ديك 1970 وهو ما أسهم في إغناء النموذج و تطويره.»[25]

1-المتوكل و التراث اللغوي العربي:

المنارة للاستشارات

لقد كان هدف المتوكل من عقد حوار بين التراث اللغوي العربي و نظرية النحو الوظيفي هو استغلال التراث اللغوي العربي بكيفية تسهم في إضافة الكثير من المعطيات إلى النموذج الوظيفي لسيمون دك فقد اقترح المتوكل بعض التعديلات على ما جاء به دك ، في هذا الصدد يورد حافظ إسماعيلي علوي في كتابه " اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة " اقتراح المتوكل لتعديل تعريف دك بخصوص الوظيفة الذيل والذي جاء فيه : « يحمل الذيل المعلومة التي توضح معلومة داخل الحمل أو تعدلها ." لقد اقترح المتوكل تعريفا آخر لهذه الوظيفة أضاف فيه نوعا ثالثا يقول :" يحمل الذيل المعلومة التي توضح معلومة داخل الحمل أوتعدلها أوتصححها."تصبح الوظيفة الذيل بمقتضى هذا التعديل ثلاثة أنواع "ذيل التوضيح " و "ذيل التعديل " و"ذيل التصحيح". »[26]

يظهر المتوكل في كثير من كتاباته مدركا لمعطيات النظرية الوظيفية و هو في محاولته لتطبيقها على اللغة العربية لا يكتفي بالنموذج الغربي كما هو و إنّما نراه في كل مرة يجري بعض التعديدات أو يضيف بعض المفاهيم و هو في ذلك يعلم أنّ النظرية الوظيفية نظرية غربية يمكن تطبيقها على كثير من اللغات و هو في محاولته تطبيقها على اللغة العربية يدرك أنّ لكلّ لغة خصوصية يجب مراعاتها.

لم يتوقف المتوكل في تعامله مع نموذج سيمون دك الوظيفي عند التعديل و الإضافة بل تعدى ذلك أحيانا إلى مخالفة سيمون دك في بعض آرائه « لقد خالف المتوكل دك في تحليله للجمل التعجبية فليس التعجب نمطا جمليا يقابل الخبر و الاستفهام و الأمر .»[27]

لقد ذهب المتوكل في تعامله مع التراث اللغوي العربي أبعد من ذلك حين أراد أن يثبت أن الدرس اللغوي العربي القديم درس وظيفي تداولي ، يقول المتوكل : « النظرية الثاوية خلف مختلف العلوم اللغوية (النحو ، اللغة ، البلاغة ، فقه اللغة) نظرية تداولية و أنها بالتالي قادرة على التحاور (بمعنى القرض والاقتراض) مع النظريات التداولية الحديثة بما فيها نظرية النحو الوظيفي.»[28]

وبالتالي يمكن استقراء التراث العربي على نحو يمكن معه إثبات أن الوظيفة الأساس للغة هي التواصل وأن دراسة اللغة من غير الممكن أن تتمّ بمعزل عن السياق . ومع هذا فإن المتوكل لم يقع في الخطإ المنهجي الذي وقع فيه لسانيو التراث الذين حاولوا جهدهم إثبات أن كل ما جاءت به اللسانيات الحديثة موجود أصلا في الفكر اللغوي العربي بشكل أو بآخر و من ثم لم تأت النظريات اللسانية بجديد حسب رأيهم.

المنارة للاستشارات

إنّ تفطن العرب إلى أهمية المقام في المقال لا يعني أن نظرية النحو الوظيفي لم تأت بالجديد إذ « ليس التراث اللغوي العربي رغم وظيفيته نظرية لسانية وظيفية بالمفهوم الحديث وإنما هو فكر وليد حقبة معينة من تطور الفكر اللغوي يمكن أن يفاضل بينه و بين إنتاجات لغوية أخرى تعاصره. »[29]

إنّ منهج المتوكل هذا نابع من قناعة استطاع أن يدافع عنها في معظم كتاباته ، الأمر يتعلق بإيمانه بأن التراث العربي وُجد في سياق زماني و ثقافي مختلف تماما عن سياق الدرس اللساني الحديث لذلك « يجب ألاّ يخضع التراث إلى مقاييس التنظير اللساني الحديث بل يجب أن يقوّم و يحكّم عليه بالنظر إلى المناخ الفكري الذي أنتجه. فمن الحيف أن نطالب التراث وليد حقبة تاريخية أخرى بأن يستجيب إلى شروط البساطة والاقتصاد والصورنة و القابلية للحوسبة ، شروط لا يمكن أن تستوفيها إلا النظريات اللسانية الحديثة.»[30]

إن الحديث عن المنهج المتّبع في كتابات المتوكل الوظيفية لا يمكن أن يكون بمنأى عن الحديث عما يعرف عنده بالنظرية الوظيفية المثلى ، يقول المتوكل : « لنذكر بأن من المبادئ المنهجية التي نعتمدها هنا في التعامل مع التراث أن نقرأه و أن نحكم عليه من خلال ميتا– نظرية عامة تتجاوز النظريات اللسانية القديم منها والحديث و هي ما أسميناه النظرية الوظيفية المثلى في إطار هذه النظرية سنحاول .. أن نثبت وظيفية التراث أولا و أن نرصد مداها ثانيا.»[31]

إنّ المنهج الذي يتبعه المتوكل في تعامله مع التراث اللغوي العربي يختلف تماما عن منهج الوصفيين العرب وكذا التوليديين التحويليين، فالمتوكل يرى « أنّه لايمتنع أن تستمد الحجة الخارجية من نظرية لغوية قديمة... إذ يمكن أن نقدم حجة لورود المنحى الوظيفي عامة كونه غير آت من عدم بل له جذوره الضاربة في تاريخ الفكر اللغوي تسنده و تبرر تبنيه.»[32]

يرى أحمد المتوكل أن الدرس اللغوي العربي درس وظيفي أساسا و ذلك من خلال قراءته لمنهج كل من الجرجاني و السكاكي ، إنه « من الجلي الذي لا يحتاج إلى بيان أن هذين المنهجين يعكسان شقي عملية التواصل حيث يعد منهج الجرجاني نموذجا لإنتاج العبارة و منهج السكاكي نموذجا للفهم و التأويل.»[33]

ومادام الدرس الوظيفي يعنى بإنتاج العبارة و فهمها كما قدمه سيمون ديك فإن استنتاج أحمد المتوكل بخصوص المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي يبدو صائبا إلى حد ما ، لقد توصل المتوكل إلى هذا من خلال مقاربته لأفكار كل من الجرجاني و السكاكي ليخلص في الأخير إلى اهتمام العرب القدامى بما اهتم به سيمون دك في واحدة من كفايات النحو الوظيفي و هي الكفاية

المنارة للاستشارات

النفسية التي لها شديد ارتباط بما يفعله المتكلم و المخاطب أثناء العملية التواصلية ، يقول سيمون دك: « تنقسم النماذج النفسية بطبيعة الحال إلى نماذج إنتاج و نماذج فهم. تحدّد نماذج الإنتاج كيف يبني المتكلم العبارات اللغوية و ينطقها. في حين تحدّد نماذج الفهم كيفية تحليل المخاطب للعبارات اللغوية و تأويلها.»[34]

2-منهج الجرجاني في إنتاج العبارة :

لقد أفلح الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" في توخي منهج علمي ناجع لتحليل الظاهرة اللغوية خصوصا ما يتعلق بإنتاج الكلام إذ يظهر اهتمام الجرجاني الشديد بالمتكلم أحد طرفي العملية التواصلية ، يظهر هذا الاهتمام مبثوثا في ثنايا كتابه و هو يتحدث عن النظم و عن علاقة اللفظ بالمعنى ، يقول : « فإن الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام و المؤلف له ، و الواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لا مع السامع. »[35]

إنّ عملية إنتاج الكلام ترتبط أساسا بالتعليق بين الكلمات ، إنّها ترتبط بما يعرف بالعلاقة الإسنادية في علم النحو بين المسند و المسند إليه ، و هو ما عبّر عنه الجرجاني بقوله :« ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان و يجعله على ذكر أنه لا يُتصوَّر أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادا و مجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم و لا يصح في عقل ، أن يتفكَّر متفكِّر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم و لا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه وجعله فاعلا له أو مفعولا ، أو يريد فيه حكما سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبرا أو صفة أو حالا أو ما شاكل ذلك.»[36]

وإنتاج الكلام حسب ما سبق هو النظم عينه الذي يقوم على تعلق الألفاظ بعضها ببعض لتؤدي معنى يرغب المتكلم في إيصاله إلى المستمع العارف بقواعد اللغة نفسها ، و في هذا يقول الجرجاني : « واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم و لا ترتيب ، حتى يعلّق بعضها ببعض ، و يبنى بعضها على بعض ، و تجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس.»[37]

إن اهتمام أحمد المتوكل بما جاء به الجرجاني نابع من قناعة مفادها أن التراث اللغوي العربي يأخذ الوظيفة التواصلية للغة بعين الاعتبار ، و لهذا نجد تقاطعا بين علماء اللسانيات التداولية من أمثال جوج يول في كتابه التداولية و آراء الجرجاني في دلائل الإعجاز و سنحاول فيما يلي أن نستدل على ذلك .

المنارة للاستشارات

يقول جورج يول :« تختص التداولية PRAGMATICS بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم (أو الكاتب)، و يفسره المستمع (أو القارئ) لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة.»[38]

فالعناية إذن يجب أن تكون بالمعاني التي يقصدها الناس لا بالألفاظ من حيث هي ألفاظ ، و هذا ما أكد عليه الجرجاني في قوله:: « وليت شعري ، كيف يُتصوّر وقوع قصدٍ منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى؟ و معنى القصد إلى معاني الكلم أن تعلم السامع بها شيئا لا يعلمه. و معلوم أنك ، أيّها المتكلم ، لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها ، فلا تقول : "خرج زيد " لتعلمه معنى "خرج" في اللغة ، ومعنى "زيد". كيف؟ و محال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف. و لهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم ، و لا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل كلاما.»[39]

3- منهج السكاكي في فهم و تأويل العبارة:

إن المتفحص للتراث اللغوي العربي يلحظ أنّ علماء اللغة العرب لم يغفلوا ثنائية المتكلم / المخاطب، فجاء الاهتمام بها في عدد من الكتب التي درست علاقة اللفظ بالمعنى ، « إنّ هذا الاختلاف راجع في الواقع إلى أنّ من النظريات ما يستهدف وضع نموذج للمخاطب و منها ما يرمي إلى وضع نموذج للمتكلم و من الطبيعي و المنطقي بالنظر إلى مراحل عملية التخاطب أن يتقدم اللفظ على المعنى في النظريات الأولى إذ يكون الأسبق في التلقي في حين يتقدم المعنى على اللفظ في النظريات الثانية إذ إنّه السابق في إنتاج العبارة . »[40]

يرى أحمد المتوكل أنّ منهج السكاكي في تفسير الظاهرة اللغوية قائم على المخاطب يظهر هذا في قوله : « أنّ الغرض الأصلي من وضع الكلم في التركيب هو حصول الفائدة لدى المخاطب.»[41] و من ثمّ حاول أن يقدم تفسيرا لخواص التراكيب بالنظر إلى علاقتها بالمقام.

فالتركيب يكون حسنا أو قبيحا بالنظر إلى مطابقته لمقتضى الحال من عدمها . إذ إنّ « مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال ، و على لا انطباقه »[42]

و يظهر إدراك السكاكي لأهمية مطابقة المقال للمقام في استعماله للفظة " **يقتضي** " و تكرارها عددا من المرات.

فالتراكيب تتنوّع بحسب تنوّع المقامات ومن ذلك أنّ المسند إليه يأتي على أوجه مختلفة لذلك وجب عليك « أن تعرف أيّما حال يقتضي طي ذكره ، و أيما حال يقتضي خلاف ذلك ، و أيما

المنارة للاستشارات

حال يقتضي تعرفه مضمرا ، أو علما ، أو موصولا ، أو اسم إشارة ، أو معرفا باللام أو بالإضافة ، و أيما حال يقتضي تعقيبه بشيء من التوابع الخمسة ، و الفصل و أيما حال يقتضي تنكيره و أيما حال يقتضي تقديمه على المسند ، و أيما حال يقتضي تأخيره عنه ، و أيما حال يقتضي تخصيصه أو إطلاق حال التنكير و أيما حال يقتضي قصره على الخبر. »[43]

فالمقام يفرض على منشئ الكلام أن يعلم أي التراكيب هي الأنسب لإيصال هذا المعنى لهذا المخاطب ، و ما دامت المقامات مختلفة فإنّ ذلك يستتبعه حتما تراكيب متنوعة ، يقول : « لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، و مقام التهنئة يباين مقام التعزية، و كذا مقام المدح يباين مقام الذم ، و مقام الترغيب يباين مقام الترهيب ، و مقام الجدّ في جميع ذلك يباين الهزل ، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار ، و مقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار ، جميع ذلك معلوم لكل لبيب ، و كذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ، و لكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر.»[44]

و في الحديث عن أضرب الخبر في " مفتاح العلوم " اهتمام بالغ بمستقبِل الكلام الذي يجب أن يُلتفت إلى حاله أثناء إلقاء الكلام ، و هذا تجده في حديثه عن حال المتلقي أهو خالي الذهن غير متردد في قبول الخبر أم أنه متردد في قبوله أم أنّه منكر له ، إذن « الفكر اللغوي العربي القديم يتضمن ثنائية " الخبر/ الإنشاء " التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية الأوستينية " الوصف / الإنجاز " كما يدل على ذلك تعريف القدماء للخبر و الإنشاء. » [45]

لقد سبقت الإشارة إلى أنّ المتوكل لا يحاول إثبات سبق العرب إلى المنهج الوظيفي فهو يؤمن أنّ الوظيفية عندهم ليست نظرية لها أسسها و مبادؤها و إنّما هي أفكار تطرق إليها العرب و لو توسع من جاء بعدهم فيها لبلغ الدرس اللغوي العربي مبلغا عظيما لا يقل على ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة.

إنّ موقف المتوكل من التراث يتوافق إلى حدّ بعيد مع ما ذهب إليه مصطفى غلفان في كتابه "اللسانيات العربية أسئلة المنهج" في قوله : « إنّ تعدد القراءات اللسانية يفقد التراث اللغوي العربي خصوصيته الحضارية و ذلك حين تجعله قابلا لأن يصاغ في أية نظرية لسانية ممكنة اليوم و غدا . ما تنتهي إليه القراءة هو أن كل نظرية لسانية جديدة تظهر في حقل المعرفة اللغوية هي موجودة أصلا في التراث اللغوي العربي و ثاوية فيه بالقوة أو بالفعل. و قد وقفنا على نماذج قرائية

المنارة للاستشارات

متعددة رأينا فيها كيف أن الجرجاني اعتبر بنيويا وصفيا ثم نحويا توليديا و دلاليا توليديا ...إننا بمثل هذه المواقف المتباينة إزاء التراث اللغوي العربي و رجالاته نقع دون شك في مفارقة منهجية و مغالطة ابستمولوجية ففي اللسانيات ما يكون بنيويا تصنيفيا لا يمكنه أن يكون في الوقت ذاته توليديا تحويليا أو وظيفيا.»[46]

خاتمة:

من خلال ما تقدم يمكننا أن نخلص إلى ملاحظات نجملها في مايلي:

- يُصنَف المتوكل ضمن اتجاه يسعى إلى دراسة التراث اللغوي العربي في ضوء نظرية النحو الوظيفي دون إقصاء أو تهميش لأي منهما ، وإنما يسعى إلى استغلال التراث اللغوي العربي بشكل يسهم في تطور المنحى الوظيفي في دراسة اللغة.

- انطلاقا من هذا التعامل المتميز مع التراث العربي استطاع المتوكل أن يغني النظرية الوظيفية بكثير من المعطيات و أن يقترح بعض التعديلات على ما جاء به سيمون ديك.

- إنّ تفطن العرب إلى أهمية المقام في المقال لا يعني أن نظرية النحو الوظيفي لم تأت بالجديد ، فالدرس اللغوي العربي رغم وظيفيته ليس نظرية مكتملة المعالم.

- يرى أحمد المتوكل أن الدرس اللغوي العربي درس وظيفي أساسا و ذلك من خلال قراءته لمنهج كل من الجرجاني و السكاكي.

- إن اهتمام أحمد المتوكل بما جاء به الجرجاني نابع من قناعة مفادها أن التراث اللغوي العربي يأخذ الوظيفة التواصلية للغة بعين الاعتبار ، و لهذا نجد تقاطعا بين علماء اللسانيات التداولية من أمثال جوج يول في كتابه التداولية و آراء الجرجاني في دلائل الإعجاز.

- يرى أحمد المتوكل أنّ منهج السكاكي في تفسير الظاهرة اللغوية قائم على المخاطب و من ثمّ حاول أن يقدم تفسيرا لخواص التراكيب بالنظر إلى علاقتها بالمقام. فالتركيب يكون حسنا أو قبيحا بالنظر إلى مطابقته لمقتضى الحال من عدمها.

المنارة للاستشارات

الهوامش:

[1] - أحمد المتوكل ،المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان ،الرباط ، ط1 ، 2006، ص19

[2] - مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1، 2005 ، ص25.

[3] - أحمد المتوكل ،المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان ،الرباط ، ط1 ، 2006، ص25

[4] - بهاء الدين محمد مزيد ، تبسيط التداولية ، شمس للنشر و التوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2010م ، ص18.

[5] - أحمد المتوكل ، المرجع نفسه ، 48.

[6] - أحمد المتوكل ،المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان،الرباط ، ط1 ، 2006م ص12.

[7] - ينظر جورج يول ، التداولية ، ترجمة قصي العتابي ، الدار العربية للعلوم ، ط1 ، 2010 ، ص 13.

[8] - المرجع نفسه ص 15.

[9] - المرجع نفسه ص 13.

[10] - جورج يول ، التداولية ، ترجمة قصي العتابي ، الدار العربية للعلوم ، ط1 ، 2010 ، ص19.

[11] - حافظ إسماعيلي علوي ، اللسانيات في الثقافة العربية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ط1 ، 2009م ، ص345.

[12] - ينظر عبد الحميد السيد ، دراسات في اللسانيات العربية ، دار ومكتبة الحامد ، عمان ، 2003.

[13] - ينظر عبد الحميد السيد ، دراسات في اللسانيات العربية ، دار ومكتبة الحامد ، عمان ، 2003.

[14] - المرجع نفسه ، ص 92- 89.

المنارة للاستشارات

[15] ـ مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية الحديثة ، ص 243-277.

[16] ـ حافظ إسماعلي علوي ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ط1 2009 ، ص 345.
[17] ـ أحمد المتوكل الوظائف التداولية في اللغة العربية ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1985م ، 9.

[18] ـ المرجع نفسه ، ص 8 .
[19] ـ أحمد المتوكل ، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان ، الرباط ، ط1 ، 2006م ، ص64.

[20] ـ ـ ينظر أحمد المتوكل ، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان ، الرباط ، ط1 ، 2006م ، ص63 – 69.

[21] ـ حافظ إسماعيلي علوي ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ط1 ، 2009 ، ص404.

[22] ـ أحمد المتوكل ، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان ، الرباط ، ط1 ، 2006م ، ص160.
[23] ـ مصطفى غلفان ، لسانيات الأداة و لسانيات التراث نقلا عن حافظ إسماعيلي علوي ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ط1 2009 ، ص 348.

[24] ـ مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، دار ورد الأردنية ، ط1 ، 2013، ص35-36.

[25] ـ حافظ إسماعيلي علوي ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ط1 ، 2009م 372.

[26] ـ المرجع نفسه ، ص375 .
[27] ـ حافظ إسماعيلي علوي ، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ط1 ، 2009م ص 380.

[28] ـ ـ أحمد المتوكل ، الوظائف التداولية في اللغة العربية ، دار الثقافة ، الدار البيضاء، 1985م ، ص10.

[29] ـ أحمد المتوكل ، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان ، الرباط ، ط1 ، 2006م ، ص212.

المنارة للاستشارات

[30] ـ المرجع نفسه ص211.
[31] ـ المرجع نفسه ص 209.

[32] ـ أحمد المتوكل ، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان ، الرباط ، ط1 ، 2006م ص 214.

[33] ـ المرجع نفسه ، ص209.

[34] ـ المرجع نفسه ، ص63.
[35] ـ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص417.

[36] ـ المرجع نفسه ، ص 410.

[37] ـ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص 55.

[38] ـ جورج يول ، التداولية ، ترجمة قصي العتابي ، الدار العربية للعلوم ، ط1 ، 2010 ، ص19.

[39] ـ عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص412.
[40] ـ أحمد المتوكل ، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول و الامتداد ، دار الأمان ، الرباط ، ط1 ، 2006م ص180.
[41] ـ السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص 75
[42] ـ السكاكي ، مفتاح العلوم ص 175.

[43] ـ المرجع نفسه ص 175.

[44] ـ المرجع نفسه ص 168
[45] ـ أحمد المتوكل ، اللسانيات الوظيفية المقارنة ، دار الأمان ، الرباط ، ط1 ، 2012 ، ص37.

[46] ـ مصطفى غلفان ، ، ص مصطفى غلفان ، اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، دار ورد الأردنية ، ط1 ، 2013، ص249.

المنارة للاستشارات